حياة الناس في مدن الثغور
مدينة طرسوس

د. مصطفى علي الحياري

الجامعة الاردنية ـ كلية الآداب

تميزت الفترة الممتدة من الثمانينات من القرن الأول الهجري وحتى نهاية القرن الثاني للهجرة باهتمام الخلافة الاسلامية ـ سواء أكان مركزها في دمشق أو بغداد ـ بعمران مناطق الحدود الطويلة بين أراضيها وأراضي الامبراطورية البيزنطية لتكون مراكز دفاع أمامية تصد عن بلاد العالم الاسلامي الغارات المتكررة ، وتمنع قوات العدو من الاعتداء على سكان الحدود أو القيام بتخريب مدنهم وقلاعهم وحصونهم أو التعرض لمزروعاتهم وماشيتهم .

وشمل العمران كافة مناطق الثغور سواء بسواء . ونالت المنطقة التي عرفت بعد بالثغور الشامية اهتماما خاصا من قبل الدولة نظراً لموقعها الاستراتيجي الهام الذي يتحكم بالدروب المؤدية من قلب هضبة الأناضول الى بلاد الشام والعراق ، وبالعكس .

وقد أعيد ، خلال الفترة المذكورة ، بناء كافة المدن في هذه المنطقة والتي كانت قد خربت أو هجرها أهلها بالتدريج منذ بدايات الفتح الاسلامي لبلاد الشام . كما اقيم فيها أو على أطرافها الكثير من القلاع والحصون الجديدة ولذلك فقد عمرت مدن مثل المصيصة وأذنة وطرَسوس (١)، وقلاع وحصون مثل الثقب والهارونية والكنيسة السوداء ولؤلؤة (٢) . واحتلت مدينة طرسوس من بينها مكانة خاصة نظرا للدور الكبير الذي كان لها بعد تأسيسها بحيث صارت أكبر مدن الثغور الشامية وأوسعها عمرانا وأكثرها سكانا .

وسنحاول في هذه الدراسة اعطاء صورة مناسبة ، وبالقدر الذي تسمح به المعلومات المتوافرة ، عن سكان هذه المدينة الثغرية وعن حياتهم اليومية وفعالياتهم في أوقات السلم والحرب . وهي صورة ربما كانت نموذجاً لحياة الناس في مختلف مدن الثغور .

كان الهدف الأساسي لبناء مدينة طرسوس وغيرها من مدن الثغور أن تكون مراكز للجهاد في سبيل الله ، تتجمع فيها المقاتلة والمتطوعة القادمون مـن مختلف بلدان العالم الاسلامي ثم تنطلق بحملاتها باتجاه أراضي الامبراطوريـة البيزنطية ، وقواعد حدود ثابتة مهمتها الدفاع عن حدود الخلافة الاسلامية ضد اعتداءات قوات الروم عليها . وعلى هذا الاساس شُحنت هذه المدن في البداية بالمقاتلة على زيادة في العطاء وذلك ترغيبا في حياة المرابطة والتفرغ للجهاد في سبيل الله ، ومن ثم قصدتها المتطوعة من مختلف انحاء العالم الاسلامي .

وفي الفترة الأولى لعمران الثغور الشامية ، أثبتت التجربة العملية أن القوات التي تطوعت للمرابطة في مدن الثغور كانت قليلة وغـير كافية للقيـام بالمهام التي أنيطت بها على الوجه الأفضل ، ولذلك فقد اعتمد في عملية الجهاد والدفاع عن مناطق الحدود التابعة للدولة الاسلامية على قوات الخلافة المركزية بصورة رئيسية .

وكانت هذه القوات ترسل كل سنة في حملات الصوائف أو الحملات التي كان يقودها الخلفاء أو من ينوب عنهم للغزو أو للرد على ما كان يقوم به الروم من تخريب في منطقة الثغور . ولكن قوات الخلافة هذه لم يكن بامكانها البقـاء في منطقة الثغور بصورة دائمة بل كانت تعود كل سنة الى مراكزها التي جاءت منها . وبعد عودة هذه القوات كان يبدأ عادة الدور الفعال لأهل مدن الثغور من حامية وغيرها من الفئات في حماية الحدود في الفترة التي تمتد من أوائل الخريف وحتى أواخر الشتاء .

واستمر وضع الثغور الشامية على هذا النحو حتى تبعت هذه المنطقة للدولة الطولونية في بداية النصف الثاني من القرن الثالث للهجرة (العقد السادس من القرن التاسع الميلادي) . فمنذ ذلك الوقت صارت مدينة طرسوس وبقية مدن الثغور الشامية تعتمد اعتماداً يكاد يكون كليا على امكاناتها العسكرية المحلية الممثلة بالحاميات والمتطوعة وأهل الثغور عامة ، في الدفاع عن حدود العـالم الاسلامي الذي انشغل امراؤه بخلافاتهم الداخلية وصراعاتهم المستمرة مـن أجل السيطرة والنفوذ .

وزاد اعتماد الثغور الشامية على امكاناتها المحلية في النصف الاول من القرن الرابع للهجرة / العاشر الميلادي بسبب من الظروف السياسية الصعبة التي مرت بها الخلافة الاسلامية التي تمثلت بضعف الخلافة العباسية وسيطرة

العناصر غير العربية من أتراك وديالمة على الدولة ، والتفكك السياسي الذي أدى الى ظهور امارات مستقلة انفصلت فعليا عن الخلافة وتصارعت فيما بينهـا لاخضاع منطقة الثغور الشامية لنفوذها مثل امارة الحمدانيين في حلب وامـارة الاخشيديين في مصر والمناطق الجنوبية من بلاد الشام .

واثرت هذه الظروف كلها في بنية مجتمع مدينة طرسوس ونوعية النـاس الذين سكنوها واتخذوها موطنا لهم . ففي بداية عمرانها ، شحنت المدينة بالمقاتلة والمتطوعة الذين استقدموا اليها من مختلف أمصار العالم الاسلامي ، فصار أغلب سكانها في البداية من أهل خراسان ومن أهل المصيصة وأهـل انطاكية الذين كانوا بدورهم يمثلون مختلف امصار الشام والجزيرة الفراتية . ونمت المدينة بعد ذلك نموا كبيرا من حيث اتساع العمران وازدياد عدد سكانها حتى صارت « أجل مدن الثغور وأكثرها أهلاً وأغصّها اسواقاً » (٣) ، واقبل الناس من المجاهدين والمتطوعة اليها من مختلف انحاء العالم الاسلامي . وذكرت المصادر المعاصرة لفترة ازدهار طرسوس انه لم يكن ثمة من مدينة كبيرة من مدن الاسلام ومعروفة من حد سجستان وكرمان وفارس وخوزستان والري واصبهان وجميع الجبال وطبرستان والجزيرة الفراتية واذربيجان والعراق والحجاز واليمن والشام ومصر والمغرب الا وبطرسوس لاهل هذه البلاد دار ورباط ينزله غزاة تلك البلدة ويرابطون بها اذا وردوها ، وترد عليها الجرايات والصلات ، وتدر علهم الانزال والحملان العظيمة الجسيمة (٤) .

وكانت الجماعات التي تفد على طرسوس لتكريس حياتها للجهاد والغزو أولا ثم لنمط حياتها العادية ثانيا تمثل مختلف اجنـاس الناس وطبقـاتهم في المجتمع الاسلامي . وكان يساعد على ذلك كله ان الرؤساء وأصحاب النعم في حواضر العالم الاسلامي لم يبخلوا ، في التعويض عن عدم تمكنهم من المشاركة في الجهاد والدفاع عن حدود العالم الاسلامي ، في اقامة الربط وبناء الدور في طرسوس لتكون دور ضيافة أو أماكن اقامة للمتطوعة والغزاة الوافدين اليها ، وفي وقف الوقوف الكثيرة عليها لتستغل ويصرف من مغلها على مختلف جوانب الانفاق على هؤلاء الناس وخيلهم وسلاحهم . وقـد فصل ابن حوقل ذلك فذكر انه بالاضافة الى ما كان السلاطين والامراء يتكلفونه من أموال تنفق على الثغور فان القسم الاكبر من ذلـك كان يأتي من الأمصار لأن « أربـاب النعم يعانونـه وينفذونه متطوعين ويتحاضون عليه متبرعين » خاصة الاوقاف الكثيرة اذ لم يكن في بلد من البلدان من « رئيس أو نفيس الا وله عليها أوقاف من ضياع ذات

أكرة وغلات أو مسقف من فنادق ودور وحمامات وخانات ، هذا الى مشاطرة من الوصايا بالعين الكثير والورق والكراع الغزير » (٥) .

وكان أكثر هذه الوقوف والاحباس لاهل بغداد (٦) . ونتيجة لذلك كله صارت طرسوس المدينة « التي يقوم بها سوق الجهاد ، وينزلهـا الصالحون والعبّاد ، ويقصدها الغزاة من سائر البلاد » (٧) .

وادت هذه الظروف التي ذكرنا والتطورات التي طرأت على مدينة طرسوس خلال القرن التالي لتأسيسها الى جعلها أكثر مدن الثغور الاسلامية الروميـة سكانا ، فقد ذكر ابن حوقل ، الذي عرفها قبل استسلامها للروم ، أنه كان بها وبالمناطق التابعة لها مائة ألف فارس (٨) . وليس هذا بالعدد المبالغ فيه . فاذا كان عدد الرماة الذين يرمون عند الضرورة من فوق أسوارها ستة عشر ألف رام ، واذا لم كان ثلثا دور المدينة البالغ عددها أربعة وثلاثين الف دار ، مخصصة لسكنى العزاب الذين كانوا على الاغلب من الغلمان المكرسين حياتهم للجهاد ومن المتطوعة ، واذا كان ثلث الدور الثالث مخصصا لسكنى المجاهدين وعائلاتهم (٩)، ثم اخيرا اذا كان أصحاب المتاجر الصغيرة والصنائع الوضيعة « يلحقون بالطبقة العليا في الفروسية والشجاعة وارتباط الخيل واعداد السلاح » (١٠) فان كل ذلك يعني أن كل بالغ من سكان المدينة ومن عمالها كان عند الحاجة يشارك في الجهاد والغزو مهما كان العمل الذي يمارسه في حياته العادية . وسيظهر ذلك واضحا من الامثلة التي سترد في ما يلي من هذه الدراسة .

كان أكثر سكان طرسوس من الغلمان والمتطوعة الذين استوطنوها أو كانوا يفدون اليها . ولم يكن لهؤلاء صنعة أو حرفة الا الجهاد في سبيل الله أو التدريب المستمر على فنون القتال والاستعداد للغزو . وقد خلف لنا الجغرافي المعاصر المهلبي صورة مختصرة للحياة اليومية لهذه الفئات في المدينة . وهي صورة حية لحياة هذه الفئات من أهل الثغور . ففي الأيام التي لم يشغلهم فيها غزو الى أراضي العدو أو نفير لمواجهة هجوم مفاجىء قام به الروم في منطقة الثغـور الشامية ، كان هؤلاء الغلمان يقسمون يومهم الى قسمين : القسم الاول ، وهو صدر اليوم ، خصصوه للتدريب على ركوب الخيل واستعمال مختلف انواع الاسلحة « ... لس لهم (فيه) عملا الا ارتباط فرهة الخيل وتخريجهـا في الطراد والعمل عليها » (١١) ، والقسم الثاني ، وهو بقية اليوم ، فقد جعلـوه للراحة في منازل فياحة فيها « ... البساتين والمياه الجارية والعيش الرغد »(١٢) .

واما بقية سكان المدينة فلم يكن حالهم من حيث التدريب واستعمال الاسلحة أقل من حال الغلمان . وينطبق ذلك على جميع الفئات الاخرى حتى أصحاب المتاجر الصغيرة والصناعات الوضيعة (١٣) . وحتى الاولاد الصغار كانوا يبدأون التدريب الذي يناسبهم منذ نعومة أظفارهم وحتى بلوغهم السن التي تؤهلهم للالتحاق بفئات المقاتلة من الفرسان أو الرجالة (١٤) .

كان أهل مدينة طرسوس يمثلون مختلف أمصار العالم الاسلامي ويشكلون مجتمعا متميزا تمثلت فيه مختلف أجناس الناس وألوانهم . فقد كان الغالب على ألوانهم البياض والحمرة والسمرة الصافية . من ناحية أخرى نجد أن المجتمع الطرسوسي تمثلت فيه أيضا أغلب فئات الناس الاجتماعية وما يرتبط بهذه الفئات من خصائص عامة أو صفات مميزة . ومن الصفات العامة التي وصف بها أهل طرسوس ، والتي ربما تكونت نتيجة ظروف حياتهم الثغرية ، انه كان في أكثرهم « جفاء وغلظة على الغريب الا من كان قريب عهد منهم بالغربة » وان الشح كان غالبا عليهم (١٥) .

وترد معظم معلوماتنا عن فئات أهل مدينة طرسوس الاجتماعية عند صاحب كتاب **العزيزي** الذي يظهر أنه زار المدينة وعرف أهلها معرفة وثيقة . ويلاحظ أن المهابي لا يشير الى فئات السكان في المدينة الثغرية على أساس النمط المتعارف عليه من فئات خاصة واخرى عامة ولا حتى جماعات العامة المتعددة ، وانما يذكر فئات السكان حسب الدور الذي كانت تقوم به كل فئة في المدينة والصفات العامة التي تميزت بها . وذكر فئتين ، يظهر انهما تمثلان اكثر سكان المدينة ؛ الفئة الاولى هي فئة أهل البلد واولاد الغلمان واولاد المجاهدين واولاد خراسان الذين كانوا « من الاخلاق السمحة والنفوس الكريمة والهمم العالية والمحبة للغريب على ما ليس عليه أحد » . ثم يضيف معلقا « ولكنهم كانوا في بقية من هؤلاء الاوباش » والاوباش الذين يقصدهم المهلبي هم الذين كانوا يشكلون الفئة الاخرى والذين يسميهم بالسوقة والمستخدمين . وكان أكثر هؤلاء « من الخوز » (١٦) وسفلة العجم ومن كان فيه فسولة عن الحرفة وكسل عن طلب المعاش ، فأظهروا زهدا وورعا واعلنوا بالنصب » (١٧) . وليس هذا بالامر المستغرب في مدينة مثل طرسوس جمعت الناس من كل أمصار العالم الاسلامي .

ويرد في المصادر الاخرى ذكر لبعض الجماعات من أهل طرسوس كان لها مكانة خاصة في المجتمع ميزتها عن غيرها من الفئات . فيذكر القاضي الطرسوسي أهل الشرف في المدينة الذين تميزو عـن غيرهم ، وكانت هذه الجماعات تقتصر

على ابناء المهاجرين والانصار المقيمين بطرسوس والذين كان لهم سجل خاص بهم أنشيء زمن الخليفة المأمون ، كما كان لهم عطاء مقرر من عشـور عمـل طرسوس « يجري عليهم مجرى الميراث يأخذه خلفهم عن سلفهم » (١٨) ، ويذكر الطرسوسي جماعة ثابتةكان لها مكانتها ودورها المعروف فيالجهاد هي « الشيوخ المسجدية » الذين سنذكر أمثلة من نمط حياتهم بعد قليل . أما ابن العديم فانه يؤكد على جماعات المتطوعة الذين كان اكثرهم من أهل الجبل وخراسان ، والذين يصفهم بانهم جمعوا بين « غلظ الاعجمية وسوء أدب الصوفية » (١٩) .

ويرد ذكر لفئة هامة في حياة مدينة طرسوس وان كانت لاتشكل جماعة خاصة لها مركزها الاجتماعي في المدينة ، هي فئة « الأولاء المؤلفة قلوبهم من الروم والارمن وأولادهم » الذين كان لهم دور أساسي في التجسس على العـدو والحصول على اخبارهم خاصة وقت الحرب وكان يخصص لهذه الفئة حصص معروفة من وارد العشر حددها الوالي لهم ومن يتجدد منهم . وكانوا يفضلون في توزيع عشر الشعير على غيرهم اذ كان يطلق لهم منه رسم « على مقـدار كراعهم قضيما لها في كل سنة » (٢٠) .

ويظهر من المقتطفات المتبقية من كتاب **سير الثغور** أن القاضي الطرسوسي قد اهتم بالترجمة لحياة عدد كبير من ابناء المدينة يمثلون مختلف فئات الناس وجماعاتهم وطبقاتهم ولكن المقتطفات ذاتها لاتعكس هذا الاهتمام العام . فالعدد القليل من التراجم التي وصلتنا من هذا الطريق تترجم بمعلومات قليلة ومحدودة لبعض رجال المدينة من الغلمان المشهورين والشيوخ المسجديـة وأئمة المسجد الجامع وخطبائه ورجال الصوفية والقراء . ولعـل ذكر ملخص لبعض سير هؤلاء يساعد في اعطاء صورة مجملة للحياة العامة والحياة اليومية لبعض فئات السكان في مدينة طرسوس .

ومن أشهر الجماعات التي استوطنت المدينة وكان لها دور هام في حياتها العامة ـ خاصة الجهاد ـ الشيوخ المسجدية . وهؤلاء كانوا جماعة معروفة تعيش في المسجد الجامع ولا عمل لها الا الغزو والجهاد في سبيل الله والصـلاة الدائمة حتى أنه لم يكن لديهم تلاميذ يقرأون عليهم وانما كانوا يمضون وقتهم متوجهين الى القبلة « يصلون نافلة نهارهم أجمع الا في الاوقات المنهي عن الصلاة فيها ، لايشغلهم عن ذلك الا النداء بالنفير أو الغزو أو تجريد أو تشييع جنازة من يموت من الصالحين أو عيادة مريض من المجاهدين(٢١) . وكان من ابرز أفراد هـذه الجماعة اسحق بن ابراهيم بن يعقوب الشهرزوري ، أحـد الرجـال

الصالحين المرابطين الذي أمضى عشرين سنة من حياته ملازما للجانب الغربي من منبر المسجد في طرسوس يصلي ويقرأ القرآن ويلبي نداء النفير الى الغزو الى أن مات (٢٢) . ومنهم زَبْرَج الثَمَلي الاسود ، احد غلمان ثَمَل الخادم الذي تولى طرسوس مدة طويلة ، وقد ترك اللذة وزينة الدنيا في أيام سيده وحفظ القرآن وتنسك واشتغل بالعبادة كل وقته لايشغله عنها الا الجهاد أو تشييع جنازة أو عيادة مريض (٢٣) . ومع أنه كان يعيش في دويرة خارج المسجد الجامع الا أنه عد من الشيوخ المسجدية لكثرة مكوثه فيه . وبقي زبرج في طرسوس حتى استسلمت للروم فخرج عنها الى القدس حيث عاش بقية حياته (٢٤) .

ويرد عند القاضي الطرسوسي ذكر لعدد من الخطباء والأئمة والقراء الذين عملوا في المسجد الجامع بمدينة طرسوس . وكان للخطباء من بين هؤلاء دور هام في حياة المدينة الثغرية وهو حث الناس على الجهاد والغزو . من اشهر الخطباء الذين ذكروا أبو القاسم الحمامي الذي يبدو انه أوتي مقدرة كبيرة في البيان واعطاء كل مناسبة حقها من المقال . وكان في بيانه أمهر مايكون في مقام الدعوة ودفع الناس الى المشاركة في القتال . ويروى عنه في هذا المجال الحادثة التالية التي تشير بوضوح الى دوره وأمثاله في حياة مدن الثغور : اراد احد الامراء القيام بغزاة من طرسوس ، فحضر الى المسجد الجامع « للخروج منه على الرسم » المعروف في كل غزاة لكن هطول الامطار الغزيرة في ذلك اليوم ثبط عزائم الناس فتخلفوا عن تلبية نداء الجهاد والغزو . وراى الخطيب الحمامي قلة عدد من حضر من الناس مع الامير وانه دون العدد المعهود في مثل تلك الغزاة، فقام وخطب خطبة كان رد فعلها أن تجددت عزائم الناس وتجهز عدد كبير منهم للمشاركة في الغزاة (٢٥) .

ومن ائمة المسجد الجامع المذكورين ابن أبي سمينة الذي كان من الصالحين المعروفين بجودة القراءة وطيب الصوت ، وصلى بالناس بضع عشرة سنة (٢٦) ، وابن أبي قباس الذي يوصف بانه كان « من فرسان المحراب » وكان « اذا قرأ في محراب طرسوس سمعت قراءته في سوق الصفارين وكان اذا خطب حير السامعين والهى المحزونين » (٢٧) .

وأما الصالحون من القراء والزهاد وأهل العلم والحديث فيذكر القاضي الطرسوسي انه لم يستطع احصاءهم لكثرتهم . وعدد منهم اسحق ابن خلاد الذي كان يعلم قراءة القرآن الكريم ، وكان يقرأ عليه « ثلاثين شيخا قراء استاذين من أهل الفضل والنبل والورع والزهد » ، وامضى خمسين سنة من

حياته صائما متعبدا (٢٨) ، ومنهم أبو عبد الله العلوي من المحدثين الصالحين المستورين (٢٩) ، وابو الترك السلمي من أهل العلم والحديث والجهاد في سبيل الله (٣٠) ، وابو القاسم القحطبي وابو القاسم بن الابار من الزهـاد ورجـال الصوفيـة (٣١) .

ومن الزهاد المعروفين بطرسوس ايضا زهير بن محمد بن قصبر المروزي. أصله من أهل بغداد وانتقل الى طرسوس وأقام فيها مرابطا . ويروى عن البغوي قولا مشهورا يتعلق بورعه وزهده : « ما رأيت بعد أحمد بن حنبل اورع من زهير ولا افضل ، سمعته يقول : اشتهي لحما أربعين سنة ولا آكله حتى ادخـل (أرض) الروم فآكله من مغانم الروم » (٣٢) .

ولا تكتمل الصورة العامة لمدينة طرسوس وحياة الناس فيها دون وصف لحياتهم في الاوقات التي كانت تعيش المدينة فيهـا أقصى درجات الاستعداد الحربي والتهيؤ للقتال والتي كان يتحدد فيها دور كل فئة من فئات السكان حتى الاولاد الصغار الذين لم يبلغوا الحلم . تلك الاوقات هي اوقات النفير العام او الدعوة المفاجئة لامير المدينة وقادة فرسانها ورجالتها والمتطوعة للخروج الى الغزو أو التصدي لهجوم العدو في أية منطقة من مناطق الثغور الشامية الاخرى القريبة . وقد قدم لنـا القـاضي الطرسوسي صورة حية لهـذا الاستعداد المفاجىء .

كان اذا وقع النفير في اي وقت من نهار أو ليل فان اول عمل يقوم بـه المسؤولون عن المدينة هو اغلاق جميع ابواب المدينة ما عدا الباب الذي تقرر خروج النفير منه . وكان هذا الباب هو أقرب أبواب المدينة الى الجهة التي سيقصدها الغزاة . وكانت توضع مفاتيح الابواب جميعا عند صاحب الشرطة . وكان مقر هذا المسؤول ورجالته والمحتسب ورجاله ، في حال النفير وطول مدته، عند الباب الاول الذي يلي الباب الذي يخرج الناس منه الى النفير . وفي نفس الوقت الذي كانت تتم فيه هذه الخطوات الاولى كان المحتسب يركب ومعه رجالته يجوبون شوارع المدينة وينادون بأعلى اصواتهم « النفير يا أصحـاب الخيل والرجالة ، النفير حملكم الى باب الجهاد . . . أو الى أي باب اتفق » . واذا كان الوقت الذي وقعت فيه الدعوة الى النفير نهارا انضم الى المحتسب ورجالته عدد كبير من الصبيان وساعدوهم في النداء بالنفير (٣٣) .

وكان نوع الدعوة الى النفير يعتمد على شدة الموقف الذي استدعاه . فاذا كان الموقف عاديا استدعي أهل الخيل والرجالة فقط ، اما اذا كان الحال صعبا

وخطيرا فقد كان المحتسب ورجالته يأمرون أهل الاسواق باللحاق بالنفير الذي خرج مع والي المدينة . وبعد خروج الناس مع الامير كانت تستمر الدعوة الى النفير والمناداة به حتى يعود الامير او الوالي مع من خرج معه و لحق به ، الى دار الامارة التي كانت تقع عند باب الجهاد وبالقرب من المسجد الجامع (٣٤).

وأما كيفية خروج النفير العادي من المدينة وحتى وصوله الى مبتغاه فقد كان ايضا يتم حسب اصول مرعية ، فعندما كان يعقد الامير او الوالي لقائد من الفرسان بالتوجه الى جهة من الجهات ، كان يبعث معه قائدا أو قوادا من قواد الرجالة المعروفين مع رجالهم « أهل القوة والنشاط والنية من المتطوعة المسجدية » (٣٥) . فاذا خرجوا ونزلوا اول منزل من منازل الطريق ، قام شيوخ من الصالحين المعروفين بالمحافظة على الغلمان الذين يحصلون تحت علم وراية كل واحد منهم حتى أنه اذا أراد أحد هؤلاء الغلمان الوضوء لم يسمح له بذلك الا برقيب ثقة أمين وشيخ معروف يمضي معه الى حاجته ويعيده من ثم الى جماعته (٣٦) .

ولعل أجمل دور من أدوار فئات السكان في مدينة طرسوس من حيث الاستعداد للجهاد والمشاركة في النفير الصبيان . ويبدو أن هؤلاء كانوا يدربون منذ نعومة اظفارهم ليصبحوا أعضاء فعالين في مجتمعهم وفي عملية الجهاد التي كانت محور النشاط لكل فئات السكان . وذكر صاحب **سير الثغور** أنه بالاضافة الى اشتراك الصبيان الذين لم يبلغوا الحلم في النداء للنفير ، كانوا ـ بعد خروج النفير من المدينة ـ يجتمعون الى رجل معروف في المدينة ، ثم يحملون من السلاح ما يستطيعون ممارسته ومزاود فيها اطعمة أمثالهم ويسيرون وراء هذا الرجل ، يسيرون بسيره ويقفون بوقوفه ، فلا يزال ذلك دأبهم الى عودة الامير الى دار الامارة ، فيدخلون أمامه .

« على مراتبهم ، يصفهم قائدهم الامثل فالامثل رماتهم عن قسي الرجل التي عملت على مقاديرهم ، ثم رماتهم عن القسي الفارسية ، وربما كان فيه من اولاد اليمانية من يحمل القسي العربية بنبلها ـ صبيين صبيين . ثم من يحسن الثقاف فيثاقف قرينه ومثله وخدينه وشكله ، حتم يدخل كل صف منهم في مرتبته . ثم يتلوهم رؤية قائدهم بمطرده وعلامته (٣٧) .

وكان تدريب هؤلاء الصبيان يتم على هذه الصورة :

« حتى اذا خرج احد الصبيان من حد الطفولة واشتد عضده وقارب حد البلوغ او بلغ أو تجاوز البلوغ قليلا ، انضاف الى قائد من قواد الرجالة الذين

ذكرت وصحبه في نفيره وغزوه وارتاد لنفسه الرفاق بحسب ما يختار تربه وجاره وقرينه . فاذا التحى وخرج عن حد المرد دخل في جمهور الناس ، حاذقا بما يحتاج اليه ، ماهرا بامر جهاده وتدبير أمره ، ناقدا يقظا ان شاء الله » (٢٨) .

هذه هي الصورة العامة التي نجدها في المصادر المتوافرة ، عن حياة الناس في هذه المدينة المشهورة من مدن الثغور الشامية ، وتمثل هذه الصورة اسلوب حياة الناس فيها على مختلف اجناسهم وطبقاتهم ، وذلك في فترة قوة منطقة الثغور وازدهار مدنها . ولكن الوضع في الثغور الشامية لم يستمر على الحال التي ذكرنا . فقد طرأت في منطقة الثغور الاسلامية ـ البيزنطية ظروف غير مناسبة تراكمت مع الزمن وادت بالنتيجة الى ضعفها وعدم تمكنها من التصدي لهجمات الروم المتكررة عليها . وادى ذلك كله في النهاية الى استيلاء الروم على معظم المنطقة واستسلام ما تبقى لهم دون قتال . وكان آخر المدن التي استسلمت مدينة طرسوس .

---

(١) البلاذري ، **فتوح البلدان** ، نشر م . دي غويه (ليدن ـ بريل ، ١٨٦٦) ١٦٥ ـ ١٧٠ ، قدامة **الخراج وصنعة الكتابة** ، مخطوطة كوبرولو باسطنبول رقم ١٠٧٦ ، ورقة ١٢٨ ـ ١٣٠

(٢) نفس المصدر ، ١٧١ ، قدامة ، **الخراج** ، ورقة ١٣٠ أ .

(٣) المهلبي ، **المسالك والممالك** في **بغية الطلب في اخبار حلب** ، مخطوطة ايا صوفيا باسطنبول رقم ٣٠٣٦ ، ورقة ١٠٨ ب (وسيشار اليه فيما يلي **ببغية**) .

(٤) ابن حوقل ، **صورة الارض** ، (دار مكتبة الحياة ـ بيروت ، الارت) ، ١٦٨ . انظر كذلك **سير الثغور في اخبار طرسوس** في **بغية** ، أيا ، ورقة ١١٢ أ ، المهلبي ، **المسالك** ، في **بغية** ، أيا ، ورقة ١٠٨ ب ، وقد ترجم Le Strange فصل ابن حوقل بصورة موجزة انظر ، **Lands of the eastern caliphate,** (London, 1969), P. 132.

(٥) ابن حوقل ، **صورة الارض** ، ١٦٨ ـ ١٦٩ ، وبشكل مختصر في المهلبي ، **المسالك والممالك** في **بغية** ، أيا ، ورقة ١٠٨ ب ـ ١٠٩ أ .

(٦) المهلبي ، **المسالك والممالك** في **بغية** ، أيا ورقة ١٠٨ ب ـ ١٠٩ أ . وهناك مثل يورده ابن الجوزي عن أحد هؤلاء المهتمين بأمر الثغور من أهل بغداد ، اذ يذكر في ترجمة الحسين بن علي ابن محمد بن يحيى النيسابوري المشهور بحسينك ، أنه لما وقع الاستنفار لطرسوس ، وذلك قبل تسليمها للروم ، دخل على حسينك بعض أصحابه فوجدوه يبكي ويقول : « دخل الطاغي ثغر المسلمين طرسوس وليس في الخزانة ذهب ولا فضة » . ثم باع ضيعتين نفيستين من أجل ضياعه بخمسين الف درهم واخرج عشرة من الغزاة والمتطوعة الاجلاد بـدلا عن نفسه . **المنتظم في تاريخ الملوك والامم** ، ٧ ، (طبعة دائرة المعارف العثمانية بحيدر اباد الدكن ، ١٣٥٨ هـ) ١٢٧ ، ويبدو أنه نقل ذلك عن الخطيب البغدادي ، انظر **تاريخ بغداد** ، ٨ (تصوير المكتبة السلفية ـ المدينة المنورة) ص ٧٥

(٧)المهلبي ، **المسالك والممالك** ، في **بغية** ، أيا ، ورقة ١٠٦ ب .

(٨) ابن حوقل ، **صورة الارض** ، ١٦٨ .

(٩) **سير الثغور في بغية** ، أيا ، ورقة ١٠٩ ب — ١١٠ م ، ١١٢ أ .

(١٠) المهلبي ، **المسالك والممالك** ، في **بغية** ، أيا ، ورقة ١٠٩ أ .

(١١) **المصدر ذاته** .

(١٢) **المصدر ذاته** .

(١٣) **المصدر ذاته** .

(١٤) سيرد ذكر ذلك بالتفصيل في ما يلي .

(١٥) المهلبي ، **المسالك والممالك** ، في **بغية** ، أيا ، ورقة ١٠٩ أ .

(١٦) الخوز هم أهل خوزستان ونواحي الاهواز بين فارس والبصرة وواسط الجبال . ويصفهم ياقوت بانهم الأم الناس واسقطهم وأن الغالب على أخلاقهم السوء والبخل المفرط والمنافسة فيما بينهم في النزر اليسير . **معجم البلدان** ، ٢ ، ٤٩٤ — ٤٩٧ .

(١٧) المهلبي ، **المسالك والممالك في بغية** ، أيا ورقة ١٠٩ أ .

(١٨) **سير الثغور في بغية** ، أيا ورقة ١١٠ أ .

(١٩) ابن العديم ، **بغية** ٦/مخطوطة ، مكتبة أحمد الثالث باسطنبول رقم ٢٩٢٥

(٢٠) **سير الثغور في بغية** ، أيا ، ورقة ١١٠ ب .

(٢١) **المصدر ذاته** ، ٢/أحمد الثالث ، ورقة ٢٦٢ أ .

(٢٢) **المصدر ذاته** .

(٢٣) **المصدر ذاته** ، ٦/أحمد الثالث ، ورقة ١٩٢ ب .

(٢٤) **المصدر ذاته** .

(٢٥) ابن العديم ، **بغية** ، ٨/أحمد الثالث ، ورقة ١٧٣ ب — ١٧٤ م .

(٢٦) **سير الثغور في بغية** ، ٨/أحمد الثالث ، ورقة ٢٣٩ م .

(٢٨) **المصدر ذاته** ، ٢/أحمد الثالث ، ورقة ٢٦٩ أ .

(٢٧) **المصدر ذاته** ، ورقة ٢٣٩ ب — ٢٤٠ م .

(٢٩) **المصدر ذاته** ، ٣/أحمد الثالث ١٣٨ ب — ١٣٩ أ .

(٣٠) **المصدر ذاته** ، ٨/أحمد الثالث ، ٣٧ ب — ٣٨ أ .

(٣١) **المصدر ذاته** ، ورقة ١٧٤ ب .

(٣٢) الخطيب البغدادي ، **تاريخ بغداد** ، ٨ ، ٤٨٤ — ٤٨٥ ، ابن الجوزي ، **المنتظم** ، ٥ ، ٤، سبط بن الجوزي ، **مرآة الزمان** ، (خط) مكتبة أحمد الثالث ، ١٠ ورقة ١٠

(٣٣) **سير الثغور في بغية** ، أيا ورقة ١١٤ ب — ١١٥ أ .

(٣٤) **المصدر ذاته** ، ورقة ١١٥ ا .

(٣٥) **المصدر ذاته** ، ورقة ١١٥ أ — ب .

(٣٦) **المصدر ذاته** .

(٣٧) **سير الثغور في بغية** ، أيا ، ورقة ١١٥ ب .

(٣٨) **المصدر ذاته** ، ورقة ١١٥ ب — ١١٦ أ .